ماذا نفعل عند شعورنا بأنّنا نُجرَّبُ إلى أقصى حدودنا؟

الأب رافائيل نويكا

سؤال: أيّها الأب رافائيل، نمرُّ بتجارب كثيرةٍ في حياتنا. من فضلك انصحنا ماذا يجب أن يكون موقفنا تجاه الله، وكيف يجب أن نسلك تجاهه، وماذا يتوقّع منّا الله أن نفعل عندما نشعر بأنّنا نُجرّب إلى أقصى حدودنا، ولا نملك القوّة على فعل ما يجب أن نفعله. ماذا ينبغي لنا أن نعمل كي لا نقع في اليأس؟

أنت تتحدّث عن تلك اللحظات التي نصلُ فيها إلى الحدّ الأقصى، إلى نهاية قوانا. وأجرؤ على أن أضيف: أبعد من ذلك! أبعد من هذا الحدّ. لا أستطيع أن أعطيكَ صيغة، لأنّ الصيغة غير موجودة. والبحث عن صيغةٍ للهروب [من هذه الأوقات] أدّى إلى السقوط الأوّل، سقوط آدم. أي لا تنتظر من الله أن يفعل شيئًا يؤلّهك، لا تتوقّع أن "تأكل من تلك الشجرة فتنفتح عيناك مباشرةً وتصبح مثل الله" – لا وجود لأمرٍ كهذا! إنّ الصيغة أو الشكل أو الشكليّة لن تستطيع أن تخلّصكَ، بل ما سيُخلّصكَ هو العلاقة الشخصيّة بين شخصِكَ والله كشخصٍ – هذا هو ما يُخلّص.

في اللحظات التي تُعاني فيها إلى الحدّ الأقصى، أو ربّما إلى ما هو أبعد من هذا الحدّ، أودّ أن أشارككم ما تعلّمته من القدّيس صفروني - وليضعه الله في قلوبكم: "لا تنسوا أنّ هذا يعني أيضًا مقياسَ الثقة التي يُظهرها الله لكم". لذا، فإنّ مقياس الألم هو أيضًا مقياس ثقة الله بك، أنتَ النفس الضعيفة، والعاجزة، والخاطئة، والمُعانية إلى الحدّ الأقصى، إلى ما هو أبعد من الحدّ.

وحين أقول "ما فوق الحدّ"، أومن بأنّه حقيقةٌ أيضًا. هذا الـ"ما فوق الحدّ" نبلغه في حياتنا الروحيّة، خلال مسيرتنا من لاكينونتنا (التي ما زلنا نحملها معنا في صيرورتنا). عبر هذه المسيرة نذهب إلى ما أبعد من الحدّ ونتجاوز حدودنا، وهذا يحدث مرّاتٍ كثيرة في أوقات لاكينونتنا.[1]

[1] يستخدم الأب رافائيل هذه التعابير التي سبق أن استخدمها القدّيس صفروني أبوه الروحيّ، وهي مصطلحات فلسفيّة تبتغي وصف التحوّل الذي يمرّ به الإنسان وصولًا إلى القداسة والاتّحاد بالله. الكينونة هي مصدر الفعل "كان"، والصيرورة هي مصدر الفعل "صار". يقول القدّيس صفروني إنّ "مفهوم القداسة ليس ذا طبيعة أخلاقية بل كيانية" ("القديس سلوان الآثوسي، ص 209). ويصف

والله يأخذنا إلى ما أبعد من الحدّ، فتتّسع حدودنا. وإذا صبرنا في هذه الأوقات... وأيّ صبر؟ قلْ "يا ربّ" – وإذا لم تستطع أن تقول شيئًا، فعلى الأقلّ لا تنسَ أنّ الله يحبّك. هل تشعر بأنّه غير موجود؟ لا بأس! يمكنك أن تشعر بكلّ ما يريدك الشّيطان أن تشعر به، لكن استمرّ [في المضيّ قدمًا]. لدينا شهادة ألفي سنة من فترة الفيلوكاليا الكنسيّة، إذا لم نأخذ بالحسبان العهد القديم أيضًا، أنّه مع الله لا يوجد سوى الغلبة. تجاوَزْ عتبة التحمُّل هذه وسترى أنّ حدودك قد اتّسعت، إلى أن نصير غير محدودين مثل الله. إنّ انتفاء الحدود وتجاوزها يصيران أحيانًا بواسطة الأوقات العصيبة.

أودُّ أن أشاركك الأمرين التاليَين: لا وجود لصيغة هروب؛ وإذا كنتَ تريد صيغةً فالكلمة الوحيدة هي "أن تحتمل"، أن تحتمل تلك الفترة بإيمانٍ بالله الذي يحبُّنا، وتردَّ بالإيمان على الثقة التي يُظهرها لنا الله عندما يعاملنا على هذا النحو.

سأضرب مثلًا: يُقال إنّ لعازر كان صديق المسيح. انظر إلى تراتيل سبت لعازر والأحد. انظر كيف يقول المسيح: "قد مرض لعازر". غير أنّه لم يذهب ويفعل شيئًا ليَشفيه. تركه ليموت، تركه أربعة أيّامٍ في القبر إلى أن بدأ بالإنتان (بحسب كلام الإنجيل)، أي بدأ يفسد وبدأ جسده بالانحلال. إنّ الأناجيل تذكُر أربعة أحداثِ قيامة، وقيامة لعازر هي أوجها. يمكننا أن نقول عن الثلاثة الأخرى إنّها موتٌ سريريّ، ولكنّ قيامة لعازر لم تكن كذلك! فالمسيح لم يُقِمه من الموت، بل من الانحلال! بالقوّة الإلهيّة التي خلقت الخليقة كلّها من العدم. نعم، ولكن لمَن كان المسيح سيَصنعُ عجيبةً كهذه إلّا لصديقٍ عزيزٍ له؟ آمنَ بأنّ لعازر كان يستطيع أن يحتمل قانونًا[2] ثقيلًا كهذا، هو ألم الموت (وألم القيامة، إذ يبدو أنّ الموتى السريريّين يتألّمون هم أيضًا ألمًا عظيمًا عندما يُنعَشون؛ لا نعرف مدى ألم لعازر لأنّ الموت لم يكن سريريًّا ولم يكن الإنعاش في المستشفى، الأمر الذي يبدو هو أيضًا مؤلمًا). لمَن كان سيفعل ذلك إلّا للعازر؟ عندما قال المسيح: "ولكنّ هذا المرض ليس للموت بل لمجد الله"، مَن سوى الصديق الحقيقيّ المؤمن إيمانًا كاملًا بالمسيح، كان بإمكانه أن يحتمل قانونًا ثقيلًا كهذا ليُمجّد الله بآلامه؟ طبعًا كان لعازر صديقه – وصديقًا عظيمًا! وإلى حدّ ما، أنتَ أيضًا مثله، في الأوقات التي يظهَر فيها المسيح غير مهتمّ عندما تعاني إلى أقصى حدودك، وحتّى

الرسول بولس هذا التحوّل الكيانيّ بخلع الإنسان العتيق، ولبس الإنسان الجديد (أف 4: 22-24). من هنا، نفهم أنّ اللاكينونة هي الوجود المنفصل عن الله، منها تنطلق إعادة ولادة الإنسان، حتّى يتحوّل إلى الصيرورة التي يحوز فيها النعمة ويتألّه كيانه (المعرّب).

[2] ليس بالمعنى العامّ للكلمة بل بالمعنى المستخدَم في الحياة الروحية. مثلًا في سرّ الاعتراف، يعطي الأب الروحيّ الابن المعترف قانونًا يساعده على التوبة (المعرّب).

فوق هذا الحدّ. هذه ليست لامبالاة! عليكَ أن تتحلّى بالإيمان بأنّ الذي يعاملك مثلما عاملَ لعازر، يعاملك بالثقة نفسها التي تملكها في داخلك، على قدر ما تبتغي المسيح.

والله سيمنحكَ الباقي، لأنّ ما يبقى هو الصبر، وفي أوقاتٍ كثيرةٍ ما من حاجةٍ إلى الكثير من الصبر. وإذا عرفنا كيف نحتمل هذه الأوقات، آه أيّة قيامةٍ ستتبعها! وبكلامي على القيامة، لا أتكلّم رمزيًّا أو مجازيًّا. فالقيامة تكون حقيقيّة، لا نفسيّة، بل روحيّة. تخرج إنسانًا مختلفًا! تشهد التراتيل والسنكسار والتقليد الكنسيّ كلّه على أنّ لعازر، عندما خرج من القبر، كان شخصًا مختلفًا! رجلًا مختلفًا عائدًا من الموت! والقدّيس سلوان أيضًا، بعد أن تلقّى عبارة "احفظ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس"، واختبرها، صار سلوانَ مختلفًا؛ والقدّيس أنطونيوس، كان على وشك الموت ولكنّ المسيح خلّصَه في اللحظة الأخيرة. فالشياطين كانت قد ضربته إلى حدّ الموت، وكان مستلقيًا يُحتَضَر، ولكنّ المسيح ظهر له وأعاده إلى الحياة. فخرج إنسانًا مختلفًا من هذه التجربة! هذا ما تفعله رحمة الله التي تأخذنا إلى ما يفوق ضعفاتنا، تمنح أمورًا تبعث الرهبة لأنّ هذه الأمور لا تُعطى وفقًا لقياس الإنسان. ولهذا السبب أشدّد مجدّدًا: فليمنحنا الله القوّة (التي تتعدّى قياسنا) في هذه الأوقات! مرّت والدة الإله بتجربةٍ كهذه عند الصليب، وكذلك فعل الرسل، والقدّيسون كما نرى في سيَر حياتهم.

مقتطفٌ من مؤتمر "الأزمة في الكنيسة" (مدينة ألبا يوليا الرومانيّة، 2003).

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Fr. Rafail Noica (2003). “What do we do when we feel tested to our limits?”. *Sayings of the Romanian Elders.* Substack.